١ - الإخلاص والمتابعة

شرطان لقبول العمل

لا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ عملًا من الأعمال حتى يتوفر فيه شرطان **فالأول**- هو الإخلاص وهو شرط الباطن، **والثاني**- هو متابعة سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو شرط الظاهر، ودل على هذا المعنى كتاب الله المنزل وسنة النبي المرسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [المُلْكِ : ٢].

قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه فإن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل.

وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ .
[الكَهْفِ : ١١٠]

فالعمل الصالح هو الموافق للسنة وعدم الشرك هو الإخلاص.

وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النِّسَاءِ : ١٢٥].

فإسلام الوجه هو الإخلاص، والإحسان هو متابعة سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(أ) الإخلاص

الإخلاص: هو تجريد قصد التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ عن جميع الشوائب.

وقيل: هو إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالقصد في الطاعات.

وقيل: هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق.

والإخلاص شرط لقبول العمل الصالح الموافق لسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقد أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ به فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البَيِّنَةِ : ٥].

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجرَ والذِّكْر ما له؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا شيء له**»، فأعادها ثلاث مرات ويقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا شيء له**» ثم قال: «**إن الله - عزَّ وجلَّ - لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتُغِيَ به وجهه**»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال في حجة الوداع: «**نَضَّرَ الله امرءًا سمع مقالتي فوعاها، فربّ حامل فقه ليس بفقيه، ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مؤمن: إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم**»(٢).

والمعنى: أن هذه الثلاثة تستصلح بها القلوب، فمن تخلَّق بها طهر قلبه من الخيانة والدغَل والشر.

ولا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [صٓ: ٨٣]، وروي أن أحد الصالحين كان يقول لنفسه: «يا نفس أخلصي تتخلصي».

وكلُّ حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس، ويميل إليه القلب، قلّ أم كثر، إذا تطرق إلى العمل، تكدر به صفوه، وزال به إخلاصه، والإنسان مرتبط في حظوظه، منغمس في شهواته، قلما ينفك فعلٌ من أفعاله، وعبادةٌ من عباداته عن حظوظٍ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس، فلذلك قيل: «مَن سلم له من عمره لحظةٌ واحدةٌ خالصةٌ لوجه الله نجا»؛ وذلك لعزّة الإخلاص، وعُسْرِ تنقية القلب عن الشوائب، فالإخلاص: تنقية القلب من الشوائب كلها، قليلها وكثيرها، حتى يتجرد فيه قصدُ التقرب فلا يكون

(١) رواه النسائي (٦/ ٢٥) «الجهاد»، وحسنه العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٢٨)، وقال المنذري في «الترغيب» (١/ ٢٤): إسناده جيد، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم [٥٢].

(٢) رواه الترمذي (١٠/ ١٢٦) «العلم»، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (١/ ٨٤) «المقدمة»، والدارمي (١/ ٧٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢٣٦)، وأحمد (٤/ ٨٠، ٨٢)، وصححه الألباني.

فيه باعثٌ سواه، وهذا لا يُتصور إلا من محب لله مستغرق الهم بالآخرة، بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرارٌ، فمثل هذا لو أكل، أو شرب، أو قضى حاجته، كان خالص العمل، صحيح النية، ومن ليس كذلك فبابُ الإخلاص مسدودٌ عليه إلا على الندور.

وكما أن مَن غلب عليه حبُّ الله، وحب الآخرة، فاكتسبت حركاتهُ الاعتيادية صفة همه، وصارت إخلاصًا، فالذي يغلب على نفسه الدنيا، والعلو، والرياسة، وبالجملة غير الله، اكتسبت جميعُ حركاته تلك الصفة، فلا تسلم له عبادةٌ من صومٍ، وصلاة وغير ذلك إلا نادرًا.

فعلاج الإخلاص كسرُ حظوظ النفس، وقطعُ الطمع عن الدنيا، والتجردُ للآخرة، بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذ ذاك يتيسّر به الإخلاص، وكم من أعمال يَتعب الإنسان فيها، ويظن أنها خالصةٌ لوجه الله، ويكون فيها من المغرورين؛ لأنه لم يَرَ وَجْهَ الآفة.

كما حُكي عن بعضهم: أنه كان يصلي دائمًا في الصف الأول، فتأخّر يومًا عن الصلاة فصلى في الصف الثاني، فاعترته خجلةٌ من الناس حيث رأوْه في الصف الثاني، فَعَلِم أن مسرّته وراحة قلبه من الصلاة في الصف الأول كانت بسبب نظر الناس إليه، وهذا دقيقٌ غامضٌ قَلَّما تسلم الأعمالُ من أمثاله، وقلَّ من ينتبه له إلا مَن وفقه الله تعالى، والغافلون عنه يَرَوْنَ حسناتهم يومَ القيامة سيِّئاتٍ، وهم المقصودون بقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٤٧-٤٨].

وبقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤].

بعض الآثار عن الإخلاص

قال يعقوب: «المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته».

قال السوسي: «الإخلاص فَقْدُ رؤية الإخلاص، فإن مَن شاهد في إخلاصه الإخلاص فَقَد احتاج إخلاصُه إلى إخلاص». وما ذكر إشارة إلى تصفية العمل من العُجْب بالفعل؛ فإن الالتفات إلى الإخلاص، والنظر إليه عُجْب، وهو من جملة الآفات، والخالص ما صفا عن جميع الآفات.

قال أيوب: «تخليص النيات على العُمّال أشد عليهم من جميع الأعمال».

وقال بعضهم: «إخلاصُ ساعة نجاةُ الأبد، ولكنَّ الإخلاص عزيزٌ».

وقيل لسهل: أي شيء أشدُّ على النفس؟ قال: «الإخلاص؛ إذ ليس لها فيه نصيب».

وقال الفُضَيْل: «تركُ العمل من أجل الناس رياء، والعملُ من أجل الناس شرك، والإخلاص: أن يعافيَك الله منهما».

فضل النية

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «أفضل الأعمال أداءُ ما افترض الله تعالى، والورعُ عما حرم الله، وصدقُ النية فيما عند الله تعالى».

وقال بعض السلف: «رُبّ عملٍ صغيرٍ تُعظِّمه النية، وربّ عمل كبير تصغِّره النية».

وعن يحيى بن أبي كثير: «تَعلّموا النية، فإنها أبلغ من العمل».

وصحّ عن ابن عمر أنه سمع رجلًا عند إحرامه يقول: اللهم إني أريد الحج والعمرة فقال له: «أتُعْلِم الناس، أوَليس الله يعلم ما في نفسك»؛ وذلك لأن النية هي: قصد القلب، ولا يجب التلفظ بها في شيء من العبادات وإنما يشرع في الحج والعمرة أن يقول: لبيك اللهم بحجة أو بعمرة أو بعمرة وحجة إن كان قارنًا، وهو الذي يسمى بالإهلال.

(ب) متابعة السنة

والشرط الثاني لقبول العمل: أن يكون العمل مطابقًا لسنة النبي ﷺ لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»** وفي رواية لمسلم: **«مَن عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»**(١).

فهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، فكما أن حديث: **«الأعمال بالنيات»** ميزان للأعمال في باطنها فهو ميزان للأعمال في ظاهرها، فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو رد على عامله فقوله: **«ليس عليه أمرنا»** إشارة إلى أن أعمال العاملين كلها ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة فتكون أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها، فمن كان عمله جاريًا تحت أحكام الشريعة موافقًا لها فهو مقبول، ومن كان خارجًا عن ذلك فهو مردود.

أوجب الله عز وجل علينا طاعة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وجعل الله عز وجل اتباع سنة رسول الله ﷺ علامة على محبته فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال الحسن البصري: ادَّعى ناس محبة الله عز وجل فابتلاهم بهذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية [آل عمران: ٣١].

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٣٠١) «الصلح»، ومسلم (١٢/ ١٦) «الأقضية»، والرد هنا بمعنى المردود أي: فهو باطل غير مقيد به.

كما أوصى النبي ﷺ بالتمسك بسنته وسنة خلفائه الراشدين فقال ﷺ: **«فإنه مَن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإنَّ كل بدعة ضلالة»**[(١)].

قال الزهري: الاعتصام بالسنة نجاة لأن السنة كما قال مالك: مثل سفينة نوح، مَن ركبها نجا، ومَن تخلف عنها هلك.

وقال سفيان: لا يقبل قول إلا بعمل، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بمتابعة السنة.

وعن ابن شوذب قال: إنَّ من نعمة الله على الشاب إذا نَسُكَ أن يوفقه الله إلى صاحب سنة يحمله عليها.

❁ ❁ ❁

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، وأبو داود (١٢/ ٣٥٩، ٣٦٠) «السنة»، والترمذي (١٠/ ١٤٤) «العلم»، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه [٤٣] «المقدمة»، والدارمي (١/ ٤٤، ٤٥) «اتباع السنة»، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢٠٥)، وقال: هذا حديث حسن.

٢- فضل العلم والعلماء

والعلم هو ما قام عليه الدليل ويقصد به علم الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين قول فقيه

فضائله في القرآن كثيرة، منها قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وأما الأخبار، فقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَن يُرِد الله به خيرًا يفقهه في الدين»**(١)، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة»**(٢).

وسلوك الطريق لالتماس العلم يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقي وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلماء، ويدخل فيه سلوك الطريق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم مثلُ حفظه ومدارسته.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة»** قد يراد بذلك أن الله يسهل له العلم الذي طلبه، وسلك طريقه، وييسره عليه فإنّ العلمَ طريقٌ يوصل إلى الجنة، كما قال بعض السلف: «هل من طالب علمٍ فيُعان عليه»، وقد يراد به طريق الجنة يوم القيامة وهو الصراط وما قبله وما بعده.

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٦٤) «العلم»، ومسلم (٣١/ ٦٧) «الإمارة»، ورواه الترمذي (١٠/ ١١٤) عن ابن عباس وقال: حديث حسن صحيح.
وقال ابن الأثير: الفقه: الفهم والدراية والعلم في الأصل وقد جعله العرف خاصًا بعلم الشريعة.

(٢) رواه مسلم (١٧/ ٢١، ٢٢) «الذكر والدعاء»، والترمذي (١٠/ ١١٥) «أبواب العلم»، وقال: هذا حديث حسن، وأبو داود (١٠/ ٧٣) «العلم»، وابن ماجه [٢٢٥] «المقدمة».

والعلم أيضًا يدل على الله تعالى من أقرب طريق، فمن سلك طريقه وصل إلى الله - تعالى - وإلى الجنة من أقرب طريق، والعلم أيضًا يُهتدى به في ظلمات الجهل والشُّبَه والشكوك، ولهذا سمى الله كتابه نورًا، وعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الناس ولكن يقبضه بقبض العلماء، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناسُ رؤوسًا جُهّالًا فسُئلوا فأفْتوا بغير علم فضَلُّوا وأضَلُّوا**»(١).

وسُئل عبادة بنُ الصامت عن هذا الحديث فقال: «لو شئت لأخبرتك بأول علم يرفع من الناس: الخشوع».

وإنما قال عبادة رضي الله عنه هذا لأن العلم قسمان: أحدهما ما كان ثمرته في قلب الإنسان، وهو العلم بالله تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله المقتضي لخشيته، ومهابته، وإجلاله، ومحبته، ورجائه، والتوكل عليه، فهذا هو العلم النافع كما قال ابن مسعود: «إن أقوامًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فَرَسَخَ فيه نفع»، وقال الحسن: «العلم علمان: علم اللسان فذاك حجة على ابن آدم، كما في الحديث: «**القرآن حجة لك أو عليك**»(٢)، وعلم في القلب، فذاك العلم النافع، فأول ما يرفع من العلم العلمُ النافع، وهو العلم الباطن الذي يخالط القلوب ويصلحها، ويبقى علم اللسان فيتهاون الناس به ولا يعملون بمقتضاه، لا حملته ولا غيرهم، ثم يذهب هذا العلم بذهاب حَمَلته وتقوم الساعة على شرارِ الخلقِ».

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٣٤) «العلم»، ومسلم (١٦/ ٢٢٣، ٢٢٤) «العلم».
وقال الحافظ: «لا يقبض العلم انتزاعًا»: أي محوًا من الصدور، وكان تحديث النبي ﷺ بذلك في حجة الوداع.
وقال ابن المنير: محو العلم من الصدور جائز في القدرة: إلا أن هذا الحديث دل على عدم وقوعه.

(٢) رواه مسلم (٣/ ٩٩، ١٠٠) «الطهارة»، وقال النووي: فمعناه ظاهر أي تنتفع به إن تلوته وعملت به وإلا فهو حجة عليك.

ومن الأدلة على فضل العلم وأهله كذلك:

قوله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**»(١).

وقوله ﷺ: «**إنما الدنيا لأربعة نفر: عبدٌ رزقه الله مالًا وعلمًا فهو يتقي في ماله ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقًا فهذا بأحسن المنازل عند الله، ورجلٌ آتاه الله علمًا ولم يؤته مالًا فهو يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما في الأجر سواء، ورجلٌ آتاه الله مالًا ولم يؤته علمًا فهو يخبط في ماله لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقًا فهذا بأسوأ المنازل عند الله، ورجل لم يؤته الله مالًا ولا علمًا فهو يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما في الوزر سواء**»(٢).

فعادت السعادة بجملتها على العلم وموجبه والشقاوة بجملتها على الجهل وثمرته.

قال الإمام أحمد: الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس.

وقال سفيان بن عيينة: أرفع الناس منزلة من كان بين الله وبين عباده وهم الأنبياء والعلماء.

ما الفخرُ إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهدى لمن استهدى أدلاءُ

وقدرُ كل امرئٍ ما كان يُحْسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ

فَفُزْ بعلمٍ تعشْ حيًا به أبدًا ... الناسُ موتى وأهلُ العلم أحياءُ

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٦٥) «العلم»، ومسلم (٦/ ٩٧، ٩٨) «صلاة المسافرين»، وقال الحافظ: قوله: «لا حسد»: أي لا رخصة في الحسد إلا في خصلتين: أو لا يحسن الحسد إن حسن، أو أطلق الحسد مبالغة في الحث على تحصيل الخصلتين.

(٢) رواه الترمذي (٩/ ١٩٩، ٢٠٠) «أبواب الزهد»، وقال: حسن صحيح، ورواه أحمد (٤/ ٢٣٠، ٢٣١)، وابن ماجه [٤٢٢٨] «الزهد»، وصححه الألباني.

٣- أنواع القلوب وأقسامها

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كُلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيْغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم، أو يحله، قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسدُ كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلبُ**»(١).

فهو مَلِكُها، وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما يأتيها من هديه، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته، وهو المسئول عنها كلها؛ لأن كل راعٍ مسئول عن رعيته: كان الاهتمام بتصحيحه، وتسديده، أولى ما اعتمد عليه السالكون، والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسَّك به الناسكون.

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها، انقسم بحسب ذلك إلى ثلاثة أقسام: القلب الصحيح أو السليم، والقلب الميت، والقلب المريض.

١- القلب الصحيح:

هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا مَنْ أتى الله تعالى به، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

(١) جزء من حديث رواه البخاري (١/ ١٢٦) «الإيمان»، ومسلم (١١/ ٢٧، ٢٨) المساقاة والمزارعة وأول الحديث: «**إن الحلال بيِّن وإن الحرام بين**».
قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه إشارة إلى أن صلاح حركات العبد بجوارحه واجتنابه للمحرمات واتقائه للشبهات بحسب صلاح قلبه فإن كان قلبه سليماً ليس فيه إلا محبة الله وخشية الوقوع فيما يكرهه صلحت حركات الجوارح كلها ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها واتقاء الشبهات حذرًا من الوقوع في المحرمات، وإن كان القلب فاسدًا قد استولى عليه اتباع الهوى وطلب ما يحبه ولو كرهه الله فسدت حركات الجوارح كلها وانبعث إلى كل المعاصي والشبهات بحسب اتباع هوى القلب (١/ ٢٨٤، ٢٨٥) «جامع العلوم والحكم» بتحقيق الأحمدي أبو النور.

وقيل في تعريفه: إنه القلب الذي سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فخلصت عبوديته لله تعالى، إرادة، ومحبة، وتوكلًا، وإنابةً، وإخباتًا، وخشيةً، ورجاءً، وخلص عمله لله، فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل مَنْ عدا رسوله ﷺ فيعقد قلبه معه عقدًا محكمًا على الإتمام والاقتداء به وحده، دون كل أحد في الأقوال والأعمال، فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

٢- القلب الميت:

وهو ضد القلب السليم، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره، وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته، ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه رضي ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله، إنْ أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه، فهواه آثر عنده، وأحب إليه من رضى مولاه، فالهوى إمامه، والشهوةُ قائدهُ، والجهلُ سائقهُ، والغفلةُ مركبهُ، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور، ينادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد فلا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مريد، الدنيا تسخطه وترضيه، والهوى يصمُّه عما سوى الباطل ويعميه، فمخالطة صاحب هذا القلب سقم، ومعاشرته سمّ، ومجالسته هلاك.

٣- القلب المريض:

قلب له حياة وبه علة تمده هذه مرة وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله تعالى، والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه، ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات، وإيثارها، والحرص على تحصيلها، والحسد، والكبر، والعجب، ما هو مادة

هلاكه وعطبه، فهو مُمْتَحن من داعيين: داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا.

فالقلب الأول: حي، مخبت، لين، واع.

والثاني: يابس، ميت.

والثالث: مريض، فإما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى.

علامات مرض القلب وصحته

علامات مرض القلب:

قد يمرض قلب العبد، ويشتد المرض، ولا يعرف به صاحبه، بل قد يموت وصاحبه لا يعرف بموته، وعلامة مرضه أو موته، أن صاحبه لا تؤلمه جراحات المعاصي، ولا يوجعه جهله بالحق، وعقائدُ الباطلة، فإن القلب إذا كان حيًّا تألم بورود القبائح عليه، وتألم بجهله بالحق - بحسب حياته - وقد يشعر بالمرض، ويشتد عليه مرارةُ الدواء، فهو يؤثر بقاء الألم على مشقة الدواء.

ومن علامات أمراض القلوب عدولُها عن الأغذية النافعة إلى الضارة، وعدولها عن الدواء النافع إلى دائها الضار، فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي، والقلب المريض بضدِّ ذلك، وأنفع الأغذية: غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية: دواء القرآن.

علامات صحة القلب:

أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة، ويحل فيها حتى يبقى كأنه من أهلها، وأبنائها، جاء إلى هذه الدار غريبًا يأخذ منها حاجته ويعود إلى وطنه، كما قال ﷺ لعبد الله بن عمر: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»[1].

(١) رواه البخاري (١١/ ٢٣٣)، «الرقاق»، وأحمد (٢/ ٢٤، ٤١)، والترمذي (٩/ ٢٠٣) «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٠١).

وكلما مرض القلب آثر الدنيا، واستوطنها، حتى يصير من أهلها.

ومن علامات صحة القلب: أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله، ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، فيستغني بحبه عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبخدمته عن خدمة ما سواه.

ومن علامات صحة القلب: أنه إذا فاته وردهُ أو طاعة من الطاعات، وَجَدَ لذلك ألَمًا أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

ومن علاماته صحته: أنه يشتاق إلى الخدمة كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب.

قال يحيى بن معاذ: «مَن سُر بخدمة الله سُرت الأشياء كلها بخدمته، وَمن قَرّت عينه بالله قرّت عُيون كل أحدٍ بالنظر إليه».

ومن علامات صحته: أن يكون همه واحدًا، وأن يكون في الله - يعني في طاعة الله-.

ومن علامات صحته: أن يكون أشحَّ بوقته أن يذهب ضائعًا كأشد الناس شحًا بماله.

ومن علامات صحته: أن يكون إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا، ووجد فيها راحتَه، ونعيمَه وقرةَ عينه، وسرور قلبه.

ومن علاماته صحته: أن لا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره إلا بمن يدله عليه ويذكّره به.

ومنها: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص على الإخلاص فيه، والنصيحة، والمتابعة، والإحسان، ويشهد مع ذلك مِنَّةَ الله عليه فيه، وتقصيرَه في حق الله.

أسباب مرض القلب

والفتن التي تُعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات والشبهات، فالأولى: توجب فسادَ القصد والإرادة، والثانية: توجب فسادَ العلم والاعتقاد.

عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير، عودًا عودًا، فأيّ قلب أشربه نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب على قلبين: قلب أسود مُرْبادًا كالكوز مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض**»[(١)].

فقسّم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القلوب عند عرض الفتن عليها إلى قسمين: قلب إذا عُرضت عليه فتنة أشربها كما يشرب السفنج الماء، فتنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسودّ وينتكس، وهو معنى قوله: «**كالكوز مجخيًا**» أي مكبوبًا منكوسًا، فإذا اسودّ وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران مترامیان به إلى الهلاك.

أحدهما- اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والسنة بدعة، والبدعة سنة، والحق باطلًا، والباطل حقًا.

الثاني- تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وانقياده للهوى، واتباعه له.

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٢٧٠، ٢٧٢) «الإيمان».

وقوله: «مُرْبَادًا» المربد الذي لونه رُبْدَة وهي بين السواد والغبرة، و«المجخّي» هو المائل عن الاستقامة والاعتدال.

وقلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت الفتنة أنكرها وردّها، فازداد نوره وإشراقه.

٤- سموم القلب الأربعة:

اعلم أن المعاصي كلها سموم للقلب، وأسباب لمرضه وهلاكه، وهي منتجة لمرض القلب وإرادته غير إرادة الله عَزَّوَجَلَّ، وسبب لزيادة مرضه.

قال ابن المبارك:

رأيتُ الذنوبَ تُميت القلوبَ ... وقد يورثُ الذلَّ إدمانُها

وتركُ الذنوب حياةُ القلوب ... وخيرٌ لنفسك عصيانُها

فمن أراد سلامة قلبه وحياته فعليه بتخليص قلبه من آثار تلك السموم، ثم بالمحافظة عليه بعدم تعاطي سموم جديدة، وإذا تناول شيئًا من ذلك خطأ سارع إلى محو أثرها بالتوبة والاستغفار، والحسنات الماحية.

ونقصد بالسموم الأربعة: فضول الكلام، وفضول النظر، وفضول الطعام، وفضول المخالطة، وهي أشهر هذه السموم انتشارًا، وأشدها تأثيرًا في حياة القلب.

١- فضول الكلام

الحمد لله الذي أحسن خلق الإنسان وعَدَّله، وألهمه نور الإيمان، فزينه به وَجَمَّلَهُ، وعلمه البيان فقدمه به وفضله، وأمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله، فاللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغيرٌ جِرْمُه عظيم طاته وجُرمه، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان، ومن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخي العنان سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم،

عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم؟**»(١).

والمراد بحصائد الألسنة: جزاء الكلام المحرم وعقوباته فإن الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات، ثم يحصد يوم القيادة ما زرع، فمن زرع خيرًا من قولٍ أو عملٍ حصد الكرامة، ومن زرع شرًّا من قول أو عمل حصد الندامة.

وقد وردت الأخبار الكثيرة في التحذير من آفات اللسان وبيان خطره.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ قال: «**هذا**» وأخذ بلسانه(٢).

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «**أمسك عليك لسانك...**»(٣).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»(٤).

---

(١) رواه الترمذي (١٠/ ٨٧، ٨٨) «الإيمان» وقال: حسن صحيح، وابن ماجه [٣٩٧٣] «الفتن»، والحاكم (٢/ ٤١٣) «التفسير»، وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٩/ ٢٤٩) «الزهد» وقال: حسن صحيح، وابن ماجه [٣٩٧٢] «الفتن»، والدارمي (٢/ ٢٩٨) «الرقاق»، والحاكم (٢/ ٣١٣) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي والألباني.

(٣) رواه الترمذي (٩/ ٢٤٧) «الزهد»، وأحمد (٥/ ٢٥٩)، وابن المبارك [١٣٤] «الزهد»، وصححه الألباني لطرقه في «الصحيحة» رقم [٨٩٠].

(٤) رواه البخاري (١٠/ ٤٤٥) «الأدب»، ومسلم (٢/ ١٨) «الإيمان»، وأبو داود [٥٠٣٢] «الأدب»، وابن ماجه [٣٩٧١] «الفتن».

وهو من جوامع كلمه ﷺ فالكلام إما أن يكون خيرًا فيكون العبد مأمورًا بقوله، وإما أن يكون غير ذلك فيكون مأمورًا بالصمت عنه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «والله الذي لا إله إلا هو ليس شيء أحوج إلى طول سجن من لساني».

وكان يقول: «يا لسان قل خيرًا تغنم، واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «أنصف أُذنيك من فِيك وإنما جُعل لك أذنان وفم واحدٌ لتسمع أكثر مما تتكلم».

وعن الحسن البصري: قال: كانوا يقولون: إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه، وإن لسان المنافق أمام قلبه، فإذا همَّ بشيءٍ أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه.

فإن قلت: فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه؟

فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات فهذه آفات كثيرة وهي سياقة إلى اللسان لا تثقل عليه ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، فلذلك عظمت فضيلة الصمت، مع ما فيه من جمع الهم، ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة،

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٢٦٦) «الرقاق»، ومسلم (١٨/ ١١٧) «الزهد»، والترمذي (٩/ ١٩٥) «الزهد» بلفظ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوي بها سبعين خريفًا في النار» وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

والسلامة من تبعات القول في الدنيا، ومن حسابه في الآخرة فقد قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

٢- فضول النظر

فضول النظر: هو إطلاقه بالنظر إلى الشيء بملء العين، والنظر إلى ما لا يحل النظر إليه وهو على العكس من غض البصر.

والغض: هو النقص وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ به فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠ - ٣١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُتب على ابن آدم نصيبُه من الزنا فهو مدركٌ ذلك لا محالة؛ العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطى، والقلب يهوى ويتمنى ويصدِّق ذلك الفرج أو يكذبه**»(١).

وعن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عن النظر الفجأة فقال: «**اصرف بصرك**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ٢٦) «الاستئذان» ومسلم (١٦/ ٢٠٥، ٢٠٦) «القدر»، وأبو داود [٢١٣٩]، «النكاح» وأحمد (٢/ ٢٧٦).

(٢) رواه مسلم (١٤/ ١٣٩) «الأدب»، والترمذي (١٠/ ٢٢٩) «الأدب»، والدارمي (٢/ ٢٢٨) «الاستئذان»، وأحمد (٤/ ٣٥٨، ٣٦١)، ومعنى نظر الفجأة أن يقع بصره على الأجنبية من غير قصد فلا إثم عليه في أول ذلك ويجب عليه أن يصرف بصره في الحال، فإن صرف في الحال فلا إثم عليه وإن استدام النظر أثم لهذا الحديث فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره بصرف بصره مع قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .....﴾ «شرح النووي على صحيح مسلم» هامش (١٤/ ١٣٩).

وفضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور في قلب الناظر، فيُحدث أنواعًا من الفساد في قلب العبد منها:

أن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غضّ بصره لله أورثه حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه.

ومنها: دخول الشيطان مع النظرة، فإنه ينفذ معها أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي، ليزين صورة المنظور، ويجعلها صنمًا يعكف عليه القلبُ، ثم يَعِدهُ ويمنيه، ويوقد على القلب نار الشهوات ويلقي حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة.

ومنها: أنه يشغل القلب، وينسيه مصالحه، ويحول بينه وبينها، فينفرط عليه أمره، ويقع في اتباع الهوى والغفلة.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

[الكهف: ٢٨]

وإطلاق البصر يوجب هذه الأمور الثلاثة.

وقال أطباء القلوب: بين العين والقلب مَنْفذ وطريق، فإذا خَربت العين وفسدت خَرب القلبُ وفسدَ وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكْن معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه، والأنس به، والسرور بقربه، وإنما يسكن فيه أضدادُ ذلك.

وإطلاقُ البصر معصية لله عَزَّوَجَلَّ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

وما سعد مَن سعد في الدنيا إلا بامتثال أمر الله، ولا نجاة للعبد في الآخرة إلا بامتثال أوامر الله عَزَّوَجَلَّ.

وإطلاق البصر كذلك يُلبس القلبَ ظلمة، كما أن غضّ البصر لله عَزَّوَجَلَّ يُلبسه نورًا.

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ آية النور: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥]، بعد قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

وإذا استنار القلب، أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية، كما أنه إذا أظلم، أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان.

وإطلاقُ البصر كذلك يعمي القلبَ عن التمييز بين الحق والباطل، والسنة والبدعة، وغضهُ لله عَزَّوَجَلَّ يورثه فراسة صادقة يميز بها.

قال أحد الصالحين: «من عمّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغضّ بصره عن المحارم، وكفّ نفسه عن الشبهات، واغتذى بالحلال لم تخطئ له فراسة».

والجزاء من جنس العمل، فمن غضّ بصره عن محارم الله أطلق الله نورَ بصيرته.

٣- فضول الطعام

قلةُ الطعام توجب رقةَ القلب، وقوة الفَهم، وانكسار النفس، وضعفَ الهوى والغضب، وكثرةُ الطعام توجب ضد ذلك.

عن المقدام بن مَعْد يكرِب قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**ما ملأ ابن آدم وعاءًا شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسِه**»(١).

وفضول الطعام داع إلى أنواع كثيرة من الشر، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي، ويثقلها عن الطاعات والعبادات، وحسبك بهذين شرًا، فكم من معصية جلبها الشبعُ

(١) رواه الترمذي (٩/ ٢٤٤) «الزهد»، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه [٣٣٤٩] «الأطعمة»، والحاكم (٤/ ١٢١) وصححه ووافقه الذهبي والألباني.

وفضولُ الطعام، وكم من طاعة حال دونها، فمن وقي شرّ بطنه فقد وقي شرًا عظيمًا، والشيطان أعظم ما يتحكم في الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام، ولهذا جاء في بعض الآثار: إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وقال بعض السلف: كان شباب يتعبدون من بني إسرائيل، فإذا كان فطرهم قام عليهم قائم فقال: «لا تأكلوا كثيرًا، فتشربوا كثيرًا، فتناموا كثيرًا، فتخسروا كثيرًا».

وقد كان النبي ﷺ وأصحابه يجوعون كثيرًا- وإن كان ذلك لعدم وجود الطعام - إلا أن الله لا يختار لرسوله إلا أكمل الأحوال وأفضلها، ولهذا كان ابن عمر يتشبه به في ذلك مع قدرته على الطعام، وكذلك كان أبوه من قبله.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة مِن خبز بُرٍ ثلاث ليالٍ تباعًا حتى قبض»[1].

قال إبراهيم بن أدهم: «من ضبط بطنه ضبط دينَه، ومن ملك جوعَه ملك الأخلاقَ الصالحة، وإنَّ معصية الله بعيدةٌ من الجائع قريبةٌ من الشبعان».

٤- فضول المخالطة

هي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سَلبت المخالطةُ والمعاشرةُ من نعمةٍ، وكم زَرَعت من عداوة، وكم غَرست في القلب من حزازاتٍ تزول الجبالُ الراسياتُ وهي في القلوب لا تزول، ففي فضول المخالطة خسارةُ الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بقدر الحاجة، ويجعل الناس فيها أربعة أقسامٍ متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينها دخل عليه الشر:

القسم الأول: مَن مخالطته كالغذاء لا يُستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه، هكذا على الدوام، وهُم العلماء بالله وأمره

(١) رواه البخاري (١١/ ٢٨٢) «الرقاق»، ومسلم (١٨/ ١٠٥، ١٠٦) «الزهد».

ومكايد عدوه، وأمراضِ القلوب وأدويتها الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ولخلقه فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كلُّ الربح.

القسم الثاني: مَن مخالطته كالدواء، يحتاج إليه عند المرض، فما دُمْتَ صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش وما أنت تحتاج إليه من أنواع المعاملات والاستشارة ونحوها، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم مِن:

القسم الثالث: وهم مَن مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه، فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن، وهو من لا تربح عليه دين ولا دنيا، ومع ذلك فلابد أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما، فهذا إذا تمكنت منك مخالطته واتصلتْ فهي مرضُ الموت المخوف، ومنهم الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها، بل إذا تكلم فكلامه كالعصي تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه وفرحه به، فهو يُحدث من فيه كلما تحدث ويظن أنه مسك يطيب به المجلس، وإذا سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة، مِن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحدٍ من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته، فليعاشره بالمعروف ويعطيه ظاهره ويبخل عليه بباطنه حتى يجعل الله له من أمره فَرَجًا ومخرجًا.

القسم الرابع: مَن مخالطته الهلك كله، فهي بمنزلة أكل السم، فإذا اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس - لا كَثَّرهم الله - وهم أهل البدع والضلالة، الصادون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى خلافها، فيجعلون السنة بدعة والبدعة سنة، وهذا الضرب لا ينبغي للعاقل أن يجالسهم أو يخالطهم، وإن فعل فإما الموت لقلبه أو المرض.

نسأل الله لنا ولهم العافية والرحمة.

٥- أسبابُ حياة القلب وأغذيته النافعة

اعلم أن الطاعات لازمة لحياة قلب العبد لزوم الطعام والشراب لحياة الجسد، وجميعَ المعاصي بمثابة الأطعمة المسمومة التي تفسد القلب ولابد، والعبد محتاج إلى عبادة ربه عَزَّوَجَلَّ، فقير إليه فقرًا ذاتيًا، وكما يأخذ العبد بالأسباب لحياة جسده من المداومة على تناول الأغذية النافعة في أوقات متقاربة، وإذا تبين له أنه تناول طعامًا مسمومًا عن طريق الخطأ أسرع في تخليص جسده من الأخلاط الرديئة، فحياة قلب العبد أولى بالاهتمام من جسده، فإن كانت حياة الجسد تؤهله لمعيشة غير منغصة بالمرض في الدنيا، فحياة القلب تؤهله لحياة طيبة في الدنيا وسعادة غير محدودة في الآخرة، وكذلك موت الجسد يقطعه عن الدنيا، وموت القلب تبقى آلامه أبد الآباد.

وقال أحد الصالحين: «يا عجبًا من الناس يبكون على من مات جسدهُ ولا يبكون على من مات قلبه، وهو أشد»، فإذن الطاعات كلها لازمة لحياة القلب ونخصُّ هذه بالذكر - لضرورتها لقلب العبد وشدة الحاجة إليها - ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وتلاوة القرآن، والاستغفار، والدعاء، والصلاة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقيامَ الليل.

١- ذكر الله وتلاوة القرآن

وضرورة الذكر للقلب كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه-: «الذكر للقلب كالماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا أخرج من الماء»، وقد ذكر الإمام شمس الدين ابن القيم ما يقرب من ثمانين فائدة في كتابه: «الوابل الصيب»، فننقل بعضها بإذن الله تعالى، وننصح بالعودة إلى الكتاب المذكور لعظيم نفعه، ومن هذه الفوائد:

أن الذكر قوتُ القلب والروح، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته، ومنها أنه يطرد الشيطان، ويقمعه، ويكسره، ويرضي الرحمن عَزَّوَجَلَّ، ويزيل

الهم والغمّ عن القلب، ويجلب له الفرح والسرور والبسط، وينور القلب والوجه، ويكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة، ويورثه محبة الله عَزَّوَجَلَّ، وتقواه، والإنابة إليه، وكذلك يورث العبد ذكرَ الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلًا وشرفًا، ويورث جلاء القلب من الغفلة، ويحط الخطايا.

ورغم أنه من أيسر العبادات، فالعطاء والفضل الذي رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قديرٌ، في اليوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه**»(١).

وعن جابر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة**»(٢).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأن أُسبِّحَ الله تعالى تسبيحات أحب إليّ من أن أنفق عددهم دنانير في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ».

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٣٣٨، ٣٣٩) «بدء الخلق»، ومسلم (١٧/ ١٧) «الذكر»، والترمذي (١٣/ ١٦، ١٧) «الدعاء».

(٢) رواه الترمذي (٣٥٣١ تحفة) «الدعوات»، وابن حبان [٢٣٣٥] «موارد»، والحاكم (١/ ٥٠١، ٥٠٢) وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وصححه الألباني في «الصحيحة».

والذكر دواء لقسوة القلوب، كما قال رجل للحسن: يا أبا سعيد: أشكو إليك قسوة قلبي، قال: «أَذِبْه بالذكر»، وقال مكحول: «ذِكْر الله شفاءٌ، وذِكْر الناس داءٌ»، قال رجل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ فقال: أما تقرأ القرآن ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحيّ والميّت**»(١).

ودوام الذكر تكثير لشهود العبد يوم القيامة، وسببٌ لاشتغال العبد عن الكلام الباطل من الغيبة والنميمة وغير ذلك، فإما لسان ذاكر وإما لسان لاغ، فمن فُتح له بابُ الذكر فقد فُتح له بابُ الدخول على الله عَزَّوَجَلَّ، فليتطهر وليدخل على ربه عَزَّوَجَلَّ، يجد عنده ما يريد، فإنْ وجدَ ربه عَزَّوَجَلَّ وجد كل شيء، وإن فاته ربه عَزَّوَجَلَّ فاته كل شيء.

وللذكر أنواع: منها: ذكر أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، وصفاته، ومدحه، والثناء عليه بها، نحو «سبحان الله»، و«الحمد لله»، و«لا إله إلا الله»، ومنها: الخبر عن الله عَزَّوَجَلَّ بأحكام أسمائه وصفاته، نحو: الله عَزَّوَجَلَّ يسمع أصوات عباده ويرى حركاتهم، ومنها: ذكر الأمر والنهي كأن تقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ أمر بكذا، ونهى عن كذا.

ومن ذكره - سبحانه وتعالى - ذكرُ آلائه وإحسانه، وأفضل الذكر: تلاوة القرآن؛ وذلك لتضمنه لأدوية القلب وعلاجه من جميع الأمراض، قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

وَ قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٢٠٨) «الدعوات»، ومسلم (٦/ ٦٨) «صلاة المسافرين» بلفظ: «مثل البيت الذي لا يذكر الله فيه، والبيت الذي يذكر الله فيه مثل الحي والميت».

وأمراض القلب تجمعها أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للنوعين، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يُبَيِّنُ الحقَّ من الباطلِ فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم، والتصور، والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي.

فمن درس القرآن وخالط قلبه، أبصر الحق والباطل وميّزَ بينهما، كما يُميز بعينيه بين الليل والنهار، وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة، بالتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة.

وبالجملة فأنفع شيء للعبد هو ذكر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾. [الرَّعْد: ٢٨]

وأفضل الذكر تلاوة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فَاطِر: ٢٩ - ٣٠].

وعن عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ فيه مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن وهو يتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٩/ ٦٦، ٦٧) «فضائل القرآن»، والترمذي (١١/ ٣٢) «ثواب القرآن»، وأبو داود [١٤٣٩] «الصلاة».

(٢) رواه البخاري (٨/ ٦٩١) «التفسير»، ومسلم (٦/ ٨٤) «صلاة المسافرين»، وأبو داود [١٤٤١] «الصلاة»، والترمذي (١٢/ ٢٩) «فضائل القرآن».

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من قرأ حرفًا من كتاب الله - تعالى - فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف**»(١).

وقال خباب رضي الله عنه: «تقرب إلى الله ما استطعت فإنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه».

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «من كان يحب أن يعلم أنه يحب الله فليعرض نفسه على القرآن، فإن أحب القرآن فهو يحب الله فإنما القرآن كلام الله».

٢- الاستغفار

وهو طلب المغفرة، والمغفرة: هي وقاية شر الذنوب مع سترها وقد كثر ذكر الاستغفار في القرآن، فتارة يؤمر به كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. [المزمل: ٢٠]

وتارة يمدح أهله كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وتارة يذكر أن الله يغفر لمن استغفره كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وكثيرًا ما يقرن الاستغفار بذكر التوبة، فيكون الاستغفار حينئذٍ عبارة عن طلب المغفرة باللسان.

والتوبة عبارة عن: الإقلاع عن الذنوب بالقلب والجوارح، وحكم الاستغفار كحكم الدعاء، فإن شاء الله أجابه وغفر لصاحبه، لاسيما إذا خرج عن قلب منكسر بالذنوب أو صادف ساعةً من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار الصلوات.

(١) رواه الترمذي (١١/ ٣٤) «فضائل القرآن»، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ويروى عن لقمان أنه قال لابنه: يا بني عوِّد لسانك: «اللهم اغفر لي» فإن لله ساعات لا يردُّ فيها سائلًا، وقال الحسن: «أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم، وأينما كنتم، فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة».

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إن كنا لنعد لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المجلس الواحد مائة مرة يقول: «**ربِّ اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور**»[(١)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[(٢)].

وعنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنه ليغانُّ على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»[(٣)].

وبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي ثلاثة أسباب من أعظم أسباب المغفرة، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال الله تعالى: «**يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقُرابها مغفرة**»[(٤)].

(١) رواه أحمد [٤٧٢٦]، وأبو داود [١٥٠٠] «الصلاة»، وابن ماجه [٣٨١٥] «الأدب»، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (١١/ ١٠١) «الدعوات»، ومسلم عن ابن عمر (١٧/ ٢٤) الذكر بلفظ: «فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة»

(٣) رواه مسلم (١٧/ ٢٣) «الذكر»، وأبو داود [١٥٠١] «الصلاة» وقوله: «ليغانُّ» أي ليغطى ويغشى، والمراد به: السهو.

(٤) رواه الترمذي (١٣/ ٥٩، ٦٠) «الدعاء»، وأحمد (٥/ ١٥٤)، والدارمي (٢/ ٣٢٢) وشهر بن حوشب مختلف فيه وباقي رجاله ثقات وله شاهد من حديث أبي ذر، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم [١٢٧].

وبالجملة فدواء الذنوب الاستغفار، قال قتادة: إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم فأما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار، وقال عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أهلم الله - سبحانه - عبدًا الاستغفارَ وهو يريد أن يُعذبَه.

٣- الدعاء

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ﴾ [غَافِر: ٦٠]، فأمرنا الله عَزَّوَجَلَّ بالدعاء، ووعدنا بالإجابة، ثم عقب بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غَافِر: ٦٠].

فسبحان الله العظيم، ذي الكرم الفياض والجود المتتابع، جعل سؤال عبده لحوائجه وقضاء مآربه عبادة له، وطلبه منه وذمه على تركه بأبلغ أنواع الذم فجعله مستكبرًا عليه.

وعن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**مَن لم يسأل الله يغضب عليه**»(١).

وما أحسن قول القائل:

لا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الذي أَبْوَابُهُ لا تُحْجَبُ

اللهُ يَغْضَبُ إن تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وإذَا سَأَلْتَ بُنَيَّ آدَمَ يَغْضَبُ

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النَّمل: ٦٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. [البَقَرَة: ١٨٦]

وعن النعمان بن بشير قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدعاء هو العبادة**» ثم تلا الآية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غَافِر: ٦٠](٢).

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٤٤٢)، والترمذي (١٢/ ٢٦٧، ٢٦٨) «التفسير»، وابن ماجه [٣٨٢٧] «الدعاء»، والبخاري في «الأدب المفرد» [٦٥٨]، والحاكم (١/ ٤٩١)، وصححه ووافقه الألباني.

(٢) رواه أبو داود [١٤٤٦] «الصلاة»، والترمذي (١٢/ ٢٦٧) «التفسير» وقال: حسن صحيح، وابن ماجه [٣٨٢٨] «الدعاء»، والحاكم (١/ ٤٩٠، ٤٩١) وصححه ووافقه الذهبي والألباني.

والدعاء يقطع بقوله لعموم الآيات التي قدمنا ذكرها، وكذلك الأحاديث الآتية - إذا استوفى شروط الصحة.

وعن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله حييٌّ كريم يستحي إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صفرًا خائبتين**»(١).

وعن أبي سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجِّل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**»(٢).

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنا لا أحمل هَمّ الإجابة ولكن أحمل هم الدعاء فمن ألهم الدعاء فإن الإجابة معه».

فالدعاء سبب مُقتضٍ للإجابة إذا توفرت الشرائط وانتفت الموانع أي إذا راعى العبد آداب الدعاء، فما هي آداب الدعاء؟

آداب الدعاء

أن يترصّد لدعائه الأوقات الشريفة: كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الأشهر، ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من الليل.

أن يغتنم الأحوال الشريفة: كنزول المطر، وزحف الصفوف في سبيل الله، وحال السجود؛ لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء**»(٣).

---

(١) رواه الترمذي (١٣/ ٦٨) «الدعاء»، وقال: حسن غريب، وأبو داود [١٤٧٤] «الصلاة»، وابن حبان [٢٣٩٩] «موارد»، والحاكم (١/ ٤٩٧) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الحاكم (١/ ٤٩٣)، وصححه ووافقه الذهبي، وله شاهد رواه الترمذي [٣٦٢١] عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل أو كف عنه من سوءٍ مثله ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم». وحسنه الألباني في تحقيق «المشكاة» وصحيح الترمذي.

(٣) رواه مسلم (٤/ ٢٠٠) «الصلاة»، وأبو داود (٣/ ١٢٨) «الصلاة»، والنسائي (٢/ ٢٢٦) «الصلاة».

وكذلك بين الأذان والإقامة؛ لقوله ﷺ: «**الدعاء بين الأذان والإقامة لا يردّ**»(١).

أن يجزم بالدعاء، ويوقن بالإجابة، قال ﷺ: «**لا يقولنَّ أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا مستكره له**»(٢).

أن يكون على طهارة، مستقبل القبلة، ويكرر الدعاء ثلاثًا.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعا، دعا ثلاثًا، وإذا سأل سأل ثلاثًا(٣).

يبدأ بحمد الله عزوجل، ويثني عليه بأسمائه، وصفاته، وآلائه، ويثنِّي بالصلاة على رسول الله ﷺ ثم يسمي حاجته، ويختم كذلك بالصلاة على رسول الله ﷺ وحمد الله عزوجل.

ويطيب مطعمه، ولا يدعو بإثم، ولا بقطيعة رحم.

ولا ينبغي تعجل الإجابة، ولا يقول: دعوت ولم يستجب لي؛ لحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم يستجب لي**»(٤).

---

(١) رواه الترمذي (٢/ ١٣) «أبواب الصلاة» وحسنه، وأبو داود [٥١٧] «الصلاة»، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (١١/ ١٣٩) «الدعوات»، ومسلم (١٧/ ٦) «الذكر».

(٣) رواه مسلم (١٢/ ١٥٢) «الجهاد والسير».

(٤) رواه البخاري (١١/ ١٤٠) «الدعوات»، ومسلم (١٧/ ٥١) «الذكر»، والترمذي (١٢/ ٢٧٦) «الدعاء»، وأبو داود [١٤٧٠] «الصلاة».

قال ابن بطال: «المعنى أنه يسأم فيترك الدعاء فيكون كالمانّ بدعائه، أو أنه آتى من الدعاء ما يستحق به الإجابة، فيصير كالمبخل للرب الكريم الذي لا تعجزه الإجابة، ولا ينقصه العطاء» ا.هـ.

وفي هذا الحديث أدب من آداب الدعاء، وهو أن يلازم الطلب ولا ييأس من الإجابة، لما في ذلك من الاستسلام والانقياد وإظهار الافتقار.

٤- الصلاة على النبي ﷺ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: المقصود من هذه الآية أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه في الملأ الأعلى عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر - تعالى - العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعًا.

وقال ابن القيم: والمعنى أنه إذا كان الله وملائكته يصلون على رسوله فصلوا أنتم أيضًا عليه لما نالكم ببركة رسالته ويُمن سفارته من خير شرف الدنيا والآخرة، والصلاة من الله عَزَّوَجَلَّ هي الثناء وإظهار الشرف، وإرادة التكريم، وصلاة المخلوقين الدعاء بمزيد من الشرف والتكريم.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن صلَّى عليَّ واحدة صلى الله عليه عشرًا**»[(١)].

أي عشر صلوات؛ وذلك لأن الحسنة بعشر أمثالها والصلاة على النبي ﷺ من أعظم الحسنات.

(١) رواه مسلم (٤/ ١٢٨) «الصلاة»، والترمذي (٢/ ٢٧٠) «الصلاة»، وأبو داود [١٥١٦] «الصلاة»، والنسائي (٣/ ٥٠) «السهو».

قال ابن العربي: «إن قيل: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. فما فائدة هذا الحديث؟ قلنا: أعظم فائدة وذلك أن القرآن اقتضى أن من جاء بحسنة تضاعف عشرة، والصلاة على النبي ﷺ حسنة بمقتضى القرآن أن يعطى عشر درجات في الجنة، فأخبر أن الله تعالى يصلّي على من صلى على رسوله عشرًا، وذكْرُ الله للعبد أعظمُ من الحسنة مضاعفة، ويحقق ذلك أن الله - تعالى - لم يجعل جزاء ذكره إلا ذكْره، وكذلك جعل جزاء ذكر نبيه ذكر من ذكره»اهـ.

قال العراقي: ولم يقتصر على ذلك حتى زاده كتابة عشر حسنات، وحط عنه عشر سيئات، ورفعه عشر درجات، كما ورد في الأحاديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِّ علي، ورغم أنف رجل أدرك أبويه عند الكبر فلم يدخلاه الجنة، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له**»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن لله ملائكة سياحين يبلِّغوني من أمتي السلام**»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلَّى عليّ أو سأل لي الوسيلة حقت عليه شفاعتي يوم القيامة**»(٣).

---

(١) رواه الترمذي (١٣/ ٦٤ تحفة) «الدعاء»، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، والحاكم (١/ ٥٤٩) «الدعاء» مقتصرًا على الفقرة الأولى، وقال الألباني: إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه النسائي (٣/ ٤٣) «السهو»، والحاكم (٢/ ٤٢١) «التفسير»، وصححه ووافقه الذهبي، وقال الألباني: إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه مسلم (٤/ ٨٥) «الصلاة»، وأبو داود [٥١٩] «الصلاة»، والترمذي (١٣/ ١٠٢) «المناقب»، والنسائي (٢/ ٢٥، ٢٦) «الأذان».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما جلس قومٌ مجلسًا لم يذكروا الله ولم يصلوا على نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا كان مجلسهم عليهم ترة يوم القيامة، إن شاء عفا عنهم وإن شاء أخذهم**»(١).

ويستحب كثرة الصلاة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الجمعة؛ لحديث أوس بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليّ**»، قالوا: يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أَرِمْت(٢) يعني بليت؟ فقال: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»(٣).

أما صيغة الصلاة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فعن ابن مسعود الأنصاري قال: «أتانا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولوا: «**اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين. إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم**».

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٤٠ تحفة) «الدعاء»، وحسنه وصححه الألباني في «الصحيحة»، ومعنى ترة: أي حسرة.

(٢) رواه أبو داود [١٠٣٤] «الصلاة»، والنسائي (٣/ ٩١، ٩٢) «الجمعة»، وابن ماجه [١٠٨٥] «الصلاة»، والحاكم (١/ ٢٧٨) «الجمعة»، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي على شرط البخاري، وصححه الألباني.

(٣) روا مسلم (٤/ ١٢٤، ١٢٥) «الصلاة»، ومالك في «الموطأ» (١/ ١٦٥، ١٦٦)، والترمذي (١٢/ ٩٥) «التفسير»، وأبو داود [٩٦٧] «السهو» والنسائي (٣/ ٤٥، ٤٦).

٥- قيام الليل

الآيات في فضيلة قيام الليل:

قال الله تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨]، وهي في وصف المحسنين.

عن قتادة ومجاهد قالا: كانوا لا ينامون ليلة حتى الصباح.

وعن ابن عباس: لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذوا منها شيئًا.

وقال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾. [الفرقان: ٦٤]

وذكر الله - تعالى - هذه العبادة الجليلة ثم عقبها بالجزاء فقال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

ثم عقب بقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. [السجدة: ١٧]

ولما أخفوا العمل واستتروا بجنح الظلام أخفى الله عَزَّوَجَلَّ لهم الأجر.

أما الأخبار فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل**»(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي ما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة، يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة»(٢).

وفي الخبر أنه ذكر عنده الرجل ينام كل الليل حتى يصبح فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه**»(٣).

(١) رواه مسلم (٨/ ٥٥) «الصيام»، وأبو داود [٢٤١٢] «الصوم»، والترمذي (٢/ ٢٢٧) «الصلاة»، والنسائي (٣/ ٢٠٧) «قيام الليل».

(٢) رواه البخاري (٣/ ٧) «التهجد»، ومسلم (٦/ ١٦) «الصلاة».

(٣) رواه البخاري (٣/ ٣٤) «التهجد»، ومسلم (٦/ ٦٣، ٦٤) «صلاة المسافرين».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**يعقد الشـيطان على قافية أحدكـم إذا هـو نـام ثـلاث عقد، يضـرب مـكان كل عقدة عليك ليـل طويل فارقـد، فإذا اسـتيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**»(١) .

الآثـــار:

كان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا هدأت العيون قام فيسمع له دويّ كدويّ النحل حتى يصبح.

قيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهًا؟ قال: «لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورًا من نوره».

وقال: «إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل».

وقال رجل لأحد الصالحين: لا أستطيع قيام الليل فصف لي دواءً، فقال: لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه بالليل.

ويروى عن سفيان الثوري أنه قال: «حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أصبته».

وقال ابن المبارك:

إذا مـا الـليـل أظـلـم كـابـدوه ... فـيـسـفـر عـنـهـم وهـــم هـجـوع
أطـــار الخـــوف نـومـهـم فقاموا ... وأهــل الأمـــن في الـدنـيـا هجوع

وقال أبو سليمان: «أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا».

وقـال ابن المنكدر: «ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، وصلاة الجماعة».

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٣٠) «التهجد»، ومسلم (٦/ ٦٥، ٦٦) «صلاة المسافرين».